مكانـــــة العقل الإنســـــاني في الفكـــر الفلســـفي الوسيط

د. مصطفى علي خليفة المزلوط الطالبي ـ قسم الفلسفة ـ كلية التربية .
جامعة الزنتان

المُقدّمـــــــــة:

من الجديـــر بالاهتمام الحديث عن بدايـــات دور العقل الإنسانـــي الفلسفي في العصور الوسطـــى ، ســـواءً كان مسيحي أو ميلادي كان ذلك مع ظهور (القديس أوغسطين عام 354 - 430 م) في القـــرن الرابع الميلادي ، حتى نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشـــر الميلادي في الفكر المسيحي ، أما لو أمعنّا النظر في الفكر الإسلامي لوجدنا بأن ظهوره كان في القـــرن التاسع الميلادي والذي يرجع الفضل فيه إلى فيلسوف العرب (الكنـــدي) عـــام (185 هـ 796 م) وصولا إلى القرن الثاني عشر الميلادي والذي انتهى بفلســـفة (ابن رشد) عام (520 هـ) ففي واقـــع الأمر بأن تاريخ وتطور الفكر الإنساني في ذلك الوقت كانت محاولات الإنسان العقلية ووعيـــه وإحساسه بالشعور أنه أدرك أهمية التدبر والتأمل في نفس الكتب المقدسة (الإنجيل والقرآن) وكان كله من أجل فهم وتيسير شـــؤون حياته العملية ومما هو جديـــر بالذكر - أيضا- في هذا الجانب بأن تأثير الفلسفة وتاريخها الإنسانـــي في العصور الوسطى له علاقة ارتباط بالفكر الفلسفي اليوناني مثل : (ســـــقراط، وأفلاطـــون ، وأرســـطو) وغيره مثل المدارس اليونانية التي ظهرت كالرواقية والأبيقورية وغيرها.

أهميـــــــــة البحث:

ما هـــذه الدراسة إلاّ محاولة من الباحث الكشف والتنقيب عن أهمية الإنســـان في كل العصور والأزمنة وما يخص دراستنا هو دور العقل والقدرات العقلية في تطور وتسلسل الفكر الإنساني ، فدراســـة مكانة العقل تعني : مكانه الإنسان وبالتالي فإن الموضـــوع البحثي بقدر ما هو جدير بالدراســـة فهو جدير بالاهتمام وتكمن أهميته في الكشـــف عن الدور البارز الذي لعبه العقل في ذلك الوقت من خلال فهم العصر الوسيط.

منهجيـــــــــة البحث:

أما المنهج المتّبـــــع للوصول إلى الغاية هو المنهج التحليلي والتاريخي الذي يستند إلى الفهم والتحليل ثم النقد محاولة من الباحث لفهم مكانة ودور العقـــــل الإنساني من خلال تطور الفــكر عبر العصور المختلفة ، وخاصة دور العقل في العصور الوسطى.

أولا ــ رأى القديس أوغسطين في الفلسفة المسيحية والإسلامية :

يرى هذا المفكر بأن هناك علاقة واضحة وقوية بين السلطة الإلهية والسلطة الزمنية ، أي : أن هذه العلاقة تتمثل بين الإنسان و (الله) ، وذكر هذا الكلام في أحد مؤلفاته الشهيرة وهو (مدينة الله) ، ويقصد بذلك بأن مدينة الله هي مدينة الخير أما الأرض على حد قوله ففيها الشـــــرّ وعلى الإنسان أن يبحث دائما على الخير وصولا إلى الكمال وأن يبتعد عن الشـــر تجنبا للخطيئة ، ومن هـــذا المنطق فهو يقترب من ربه ، فيقوم بالعمل الصالح وأن يخلص نفسه من كل دنس ، وذلك استنادا إلى (العقل) والإيمان ويؤكد قوله على ذلك : " ليس الإيمان عاطفة غامضة وتصديقا عاطلا من الأسباب العقلية ؛ ولكنه قبـــول عقلي للحقائق .. فعلى العقل مهمة قبل الإيمان وهـــو أن لا يســـتوثق من شيء إلا أن يستوثق أولا من كفاية العقل للمعرفة اليقينة" (1).

يفهم من النص السابق دور العقل الذي يقوم به في معرفة حقائق الأشـــياء ، فالإنسان أودع (الله) - سبحانه وتعالى- فيه هـــذه القوة الفطرية التي تميزه عن كافة الحيوانات الأخـــرى والدليل على ذلك حتى قبل الإســـلام كان الإنسان له القدرة على معرفة الخير والشر والجهل والصح من الأشـــياء إلى أن جاء (القرآن الكريم) وخاطب فيه هذه الملكة لكي يدرك تمام الأمور بعقله للوصول إلى اليقين كما يوضح لنا- أيضا - (القديس أغســـطين) أن هناك مهمة أخـــرى للعقل وهي تأتي بعد الإيمان وهي تتمثل فـــي : " تفهّـــم العقائد الدينية ، وهنا الإيمان ســـابق على التعقل، معين عليه فأنه يطهر القلب ويجعل القلب أقـــدر على البحث وأســـرع قبولا للحق " (2).

تشـــرّب (أوغسطين) هذه الأفكار من خلال تأثـــره بفلســـفة (أفلاطـــون) عندما تحدّث عن فكـــرة الخير والشـــرّ في نظريته الشـــهيرة (المُثُل) حين قال بأنه يوجد الخير الأسمى ويحاول الإنسان دائما التقرب منه وكذلك من الفلاســـفة اللذين تأثروا به - أيضا - الفيلسوف الألماني في الفلسفة الحديثة (هيجل) عند وضع فلسفة التاريخ فكان تأثـــر (أوغسطين) واضح بـــ(أفلاطون) ، و(أفلوطين) ، إلا أنه

كان رافضا لما قد يتعارض مع الكتاب المقدّس ، وكان يستند إلى قول المسيح - عليه السلام - في أحد عباراته التي تقول: " أجبروهم على اعتناق دينكم " (3) إضافة إلى ذلك رفضه الصريح والواضح إلى أفكار لـ (أفلوطين الأسكندري) في مسألة الحرية الإنسانية عندما ذهب إلى القول أن الإرادة الإنسانية في منظوره تعني : " القدرة على قبول تصور ما أو رفضه ، فليست الحرية إذا القدرة على الاختيار بين الخير والشر ... ؛ لأن الله يتوقع العقل .والله يتوقعه حرا فالإنسان ربّ أفعاله لا يخضع لقدر أعمى ، ولا لتأثير النجوم لقد أخطاء أفلوطين وأتباعه في القول بالتنجم فليس يوجد لأنظمة معقولة بين النجوم والمستقبل الإنساني" (4).

ثانيا ــ فلاسفة الإسلام تجاه الفكر الفلسفي اليوناني (أبن سينا):

نهج فلاسفة الإسلام نهجا واضحا وجليا ، ومن بين هؤلاء الفلاسفة الشيخ الرئيس (ابن سينا – 428 هـ ، 1037 م) فكان رافضا لرأى أفلاطون في القول بأن النفس أزلية ولها وجود قبل وجود البدن ففي واقع الأمر كان يتفق تمام الاتفاق مع (القرآن الكريم) – أن النفس هي مخلوقه من الله - سبحانه وتعالى - ، وأنها حادثة بحدوث البدن أي: الجسد وخالف القول مع (أرسطو) الذي قال بأن النفس فانية بفناء الجسد أما (ابن سينا) فذهب إلى القول أن النفس أبدية خالدة لا تفنى بفناء الجسد ؛ لأنها جوهر روحاني أما الجسد فهو جوهر مادي ، وبالتالي كلاهما مختلف عن الآخر.

أما فيلسوف قرطبة (ابن رشد) كانت لديه مسألة التأثير والتأثر قوية بفلسفة أرسطو حتى أنه معروف عند الكثيرين بالشارح الأكبر له ، حيث استخدم المنطق مثلا في القياس لإثبات عدم تعارض الفلسفة مع الدّين أو العقل مع الإيمان أو العقل مع النقل ، ولذا ابن رشد في حقيقة الأمر كانت فلسفته منذ البداية تهتم وتحثّ على استخدام الإنسان للعقل .

ومسألة الفلسفة والدّين دليل على مكانة العقل الإنساني عند هذا المفكر والفيلسوف ففي هذا الجانب يقول : " إذا كانت الفلسفة عبارة النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع ، وأن الموجودات تدل على الصانع لمعرفة صبغتها ، وكما كانت المعرفة لصنعها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم ، فأن هذا يؤدي إلى القول بأن الشرع قد دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل ، وتطلب معرفتها وهذا يستدل به في القرآن الكريم منها قوله - تعالى - : (**أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ**) ، وقوله - سبحانه وتعالى - :(**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**) (5) ثم يضع ويعتمد القياس التالي للبرهنة على عدم تعارض الفلسفة مع الشرع وهذه كذلك

مسألة توفيق كبرى لمن يعارض بأن الفلسفة لا تستخدم العقل ففي هذا الصدد يقول- أيضا- : " الغرض من الفلسفة النظر العقلي في الكون للوصول إلى معرفة صانعة وهو الله ... مقدمة صغرى بأمر الدين على سبيل الوجوب بأن يعرف الإنسان الله بالنظر في الكون والتفكر فيه ... مقدمة كبرى . إذا دراسة الفلسفة واجبة بحكم الدين على القادر : أي على أولى الأدلة البرهانية ... نتيجة" (6).

ثالثا ـ رأي القديس توما الأكويني عام (1224 – 1274):

يربط ربطا وثيقا (توما الأكويني) بين الفلسفة والدّين في القرن الثالث عشر الميلادي إلى نفس فكرة فيلسوف قرطبة ابن رشد في كتابه المعنون : (الشامل في الفلسفة) حيث ذهب أو أشار القول إلى أنه الدّين والفلسفة كل فهم له مجاله الخاص ولا يخفى عن اختلاف مصدر كل منها وغايات وأساسيات كل واحد ولكن يرى ابن رشد : " أن الفلسفة تستطيع أن تعم البرهان على صحة بعض العقائد الأساسية ... كالتثليث والتجسيد والقربان المقدس وخلق العالم والبعث في الآخرة ... وعلى هذا وجب التحالف بين الدين والفلسفة لكي تقدم له ما تستطيع من خدمات فيصبح الإيمان مستندا إلى الوحي وإلى العقل في آن واحد" (7) .

يوضح لنا النص السابق مدى التأثير والتأثر عند مفكري العصور الوسطى في تغلب النزعة الأفلاطونية أو المذهب الأرسطي ، إلى جانب تمسكهم بعقائدهم ودياناتهم.

رابعا ــ الاتجاه الفلسفي المسيحي والإسلامي :

في حقيقة الأمر الاتجاهان كانا في العصور الوسطى ينظران إلى الإنسان من خلال مكانة الدين والعقل مؤكدين على ذلك على أن الاستناد إلى العقل شيء أساس في تفكيرهم ، زد على ذلك التأمل وحرية البحث العقلي وفي نفس الوقت التمسك بالدين لكي يثبت البحث الفكري والتدبر العلمي في منظورهم الفكري .

ومن خلال ما سبق إتباع الخير وتجنب الخطيئة والشر ما يثبت وجوده كائنات ليس فحسب وإنما مخلوق عاقل له قدراته العقلية والذهبية ومنها يمكنه تحقيق ماهيته .. وقد ورد في الآيات التي أنزلها (الله) في كتبه المقدسة ما يؤيد القول على هذا الوجود الإنساني: مثل :" الإنسان بدون أعمال ميت " إنجيل رسالة يعقوب 2 :19 " بماذا ينفع الإنسان إذا كسب العالم كله وحشر نفسه " 16 : 26 .

وقال- تعالى - : في كتابه العزيز في قوله تعالى - :(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**) [سورة الحجرات ، الآية: 13] ، وفي قوله تعالى - أيضا - : (**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ**

يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ لْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [سورة الزمر : الآية 9– 1] . ، إضافة إلى ذلك كله كان (القديس أوغسطين) في محاورته الشهيرة (المعلم) إلى التركيز على دراسة الإنسان من المنظور الفلسفي الميتافيزيقي على هيئة محاورة تلميذه أو ما أسماه (ابن خطيئة) وهو (أديودات) على أساس حدس فلسفي أي : رؤية عقلية ومحلية مباشرة للحقيقة وكانت في الواقع غايته الحقيقة من تلك المحاورة – هو إيضاح أن اللعنة التي يتناقلها الناس على أفواههم بينهم إنما تعبير عن أشياء محورة ، كما تعبر عما يفكر العقل فيه ، هذا التعبير اللغوي إما أن يكون بالكلمات وإما أن يكون بالعلاقات ، إلا أن اللغة عاجزة كل العجز عما بين الإنسان وربه ، بين الإنسان والقانون الذاتي الباطني أو كما عبر عنه (القديس أوغسطين) بالمعلم الداخلي إنه كالوحي ينزل على الإنسان ويحدثه دون أن يدركه الآخرين فتحدث المكاشفة.

إن هذا المعلم الداخلي في حقيقة هو الذي يثبت الصلة ويرسخها بين الإنسان وربه ، إنه الحقيقة المتعالية الكامنة في ذات الإنسان وداخله دون أن يشعر بها ، لذا يجب أن يبحث عنها ، وهنا لن يكون للغة أي دور على الإطلاق بل سوف تظهر رموز أو شفرات أو قسمات تقرب الإنسان من معلمه الداخلي أي (الله) أو ما عبر عنه (أوغسطين) (بالمسيح) عليه السلام.

يقول أوغسطين : " عندما نسأل فأننا نعلم من سأله ما نريد أن نسمعه منه . وعندما تعنى بدافع من السرور فأني أرى أننا لا نتحدث بالمعنى الحقيقي بالكلمة وعندما نصلي لله لا أظن أننا نعلم أو نذكر" (8) . ثم يقول كذلك في نفس المحاورة : " أما فيما يتعلق بما تدركه النفس أي بالزمن والعقل فإن كلماتنا بعد – دون شك ، عما تتأقلم حاضرا هي نور الحقيقة الداخلي الذي يغمر ما نسميه الإنسان الداخلي وضوحا ونشوة ، وإذا استطاع من يسمعنا أن يرى الأشياء نفسها بالعين الباطنه البسيطة ، فأنه يفهم ما أقول بتأمله لا بكلماتي . لذلك لا أعلمه شيئا عندما أقول له الحقيقة ما دام يراها وهو لا يتعلم من كلماتي بل من الأشياء نفسها التي يكشفها الله في باطنه ، ويستطيع أن يصيب إذا سئل عنها" (9).

نتائج محاورة أغسطين الأساسية:

1- اللغة الحقيقية هي التي تنبع من القلب والعقل معا والإيمان بالله.

2- أن محاورة (أوغسطين) المعلم تنمّ عن علاقة جلية بين النفس البشرية وخالقها.

3- يستطيع الإنسان أن يتعلم ويعلم من ذاته بواسطة معلمه الداخلي أو الباطني هو الله.

4- أن تلك المحاورة الفلسفية في جملتها إنما تأمر الإنسان وترشده بأن يبحث عن الحقيقة العليا بمعنى : أن يبحث في وجود الله وكماله.

الخاتمة:

في ختام هذه الدراسة يمكننا القول أن التركيز على دور العقل كان واضحا وجليا سواء الفكر المسيحي أو الإسلامي فكان ظهوره مع (القديس أوغسطين) في الفكر المسيحي ومع (الكندي) في الإسلامي وكانت محاولات الإنسان العقلية بارزة من خلال تفكيره في الكتب المقدسة (الإنجيل والقرآن) . وقصد الباحث من هذه الدراسة رصد واقع تطور التفكير الإنساني في العصور الوسطى لمعرفة مكانة العقل في ذلك الوقت حتى يسهل علينا فهم تسلسل الفكر الفلسفي عبر عصوره المختلفة من اليوناني إلى الإسلامي إلى الحديث والمعاصر فكانت إطلاله على الدور الذي يلعبه العقل والمكانة التي يحضى بها في ذلك الوقت وإبراز دور العقل الإنساني بين الحين والأخر والذي واقعنا المعاش يفرض علينا الخنوع إلى العقل في كل الأزمنة.

الهوامـــــــــــش :

1- د. يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط ، بيروت دار القلم ، 1967 ، ط3 ، ص 25 .
2- المصدر السابق : ص26.
3- د. توفيق الطويل : قصة النزاع بين الدين والفلسفة ، القاهرة - مكتبة مصر ، 1958 ، ط2 ، 83.
4- يوسف كرم : مصدر سابق ، ص37 .
5- د. عاطف العراقي : النزعة العقلية عند أبن رشد ، القاهرة ، دار المعارف ، 1968 م ، ص 271 .
6- المرجع السابق : ص 272 .
7- د. عبيدة فراج : معالم الفكر الفلسفي في العصور الوسطى ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ط1 ، ص212 .
8- د. حسين حنفي : نماذج من الفلسفة المسيحة في العصر الوسيط ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، 1978 م ، ط 8 ، ص66 .
9- د. حسن صفر . نماذج من الفلسفة المسيحة ، مصدر سابق ، ص 92 .